

من مقاصد عبادة الحج

د. محمد توفيق رمضان البوطي

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾

ويقول سبحانه: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾

ويقول جلَّ شأنه: ﴿وَاتَّمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾

ويقول جلَّ شأنه: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾

ويقول سبحانه: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

روى الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « بني الإسلام على خمس ، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان »

وأخرج الشيخان أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه »

أيها المسلمون:

يستعد الناس في هذه الأيام ويجزمون حقائبهم لتلبية دعوة الله تعالى إلى بيته، والكثير منهم قد ادخر ماله سنوات ليتمكن من تحقيق هذا الحلم، كل البلاد يستعد أهلها إلا سوريا، ولا أتذكر في تاريخنا المعاصر أو قبله أن دولة ما -أياً كانت - حيل بين مواطنيها وبين الحج إلى بيت الله الحرام غير سوريا لهاتين السنتين الماضيتين، ألا يخشى الذين يحولون بين أبناء هذا البلد وبين الحج إلى بيت الله الحرام أن يشملهم قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ۚ إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الْمُتَفُونُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ إلى الله نشكوهم، وخير لنا أن نشكو إلى الله ظلمهم للأمة، سييسوا الدين وجعلوا الدين مطية لأحقادهم السياسية، وما علاقة أداء نسك، وهم يدعون أنهم خدم بيت الله الحرام، بخلاف سياسي بينهم وبين الدولة، ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، لا ندري لعل الخير في ذلك.

أيها المسلمون:

لقد فرض الله عز وجل الحج على عباده مرة واحدة في العمر، وهذا إن دل على شيء فهو يدل على خطورة هذا الركن من أركان ديننا، الصلاة فرضت في كل يوم خمس مرات، والصوم فرض في كل سنة شهراً، والزكاة فرضت في كل عام أو على كل دورة إنتاجية في المواد النامية، إلا الحج فقد فرض في العمر مرة واحدة - أقول فرض بغض النظر عن التنفل - وذلك يدل على أن حج المسلم مرة واحدة في العمر يحقق الهدف التربوي والمعنى الضروري في تكوين شخصية الإنسان المسلم وتكاملها بالنظر إلى بقية الأركان.

أشواق الناس تلتهب لزيارة بيت الله الحرام، إلا أن ركنية الحج بالذات فرضت مرة واحدة في العمر، وإن كان أشواقنا تتأجج لزيارة بيت الله الحرام فهو أمر يحمل دلالة محبة الله عز وجل ومحبة بيته لأنه نُسب إليه، ليست المسألة متعلقة بآثار نريد أن نزورها أو بحجارة نريد أن نطلع عليها، ولكن تلك الحجارة تشرفت بانتسابها لله عز وجل وأنها بيته الحرام، وبأنها رمز الأمان جعلها رمز للسلام رمز

للطمأنينة ﴿أَوْ لَمْ تُنْكِرْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾، هذا المعنى هو الذي يجعل قلوبنا تتشوق لزيارة البيت الحرام والصلاة في أعتاب بيته سبحانه وتعالى .

هذه العبادة لها أثر عظيم في نفس الإنسان المسلم بحيث إذا أداها على النحو الذي أمر الله عز وجل به رجع المسلم كيوم ولدته أمه، وكأنها ولادة جديدة في حياته، أريد أن أقف على بعض معاني الحج، لأنه قد لا يتسع المقام لذكرها جميعاً.

هي أيها المسلمون عبادة ، ولكنها تمثل دورة تربية مهمة في حياة الإنسان المسلم، مرة واحدة في العمر، ولكنها تتضمن أموراً كثيرة، هي ذات تكلفة مادية، لأنك تسافر إلى ذلك البلد، وتحمل مشاق كثيرة جسدية ونفسية، هي: غربة، هي سفر، هي نفقة، ثم في هذه العبادة في الذات يتجلى معنى العبودية المطلقة التي لا تحمل غير معنى واحد: لبيك اللهم لبيك، كما تأمرني أنا أفعل، وبماذا كلفتي أنا طوعاً أمرك ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ أطوف بالبيت العتيق، أبدأ من الحجر الأسود، وأنتهي إلى النقطة التي بدأت منها، سبعة أشواط، وسبعة أشواط أسعى ما بين الصفا والمروة، وهما جبلان صغيران كانا قرب الكعبة المشرفة، أمرني ربنا تبارك وتعالى بالسعي بين الصفا والمروة: أسعى بين الصفا والمروة ، وماذا في ذلك ؟ لبيك يا رب أنا طوعاً أمرك أنا رهن تكليفك، أنا ساجد راعع خاضع لأمرك.

الحج عرفة... يتجه الحجاج إلى عرفة فأبجته معهم إلى عرفة، وماذا في عرفة؟ هل هي منتجع سياحي؟ أم منتزه؟ أم متجر؟! ليس في عرفة إلا شيء واحد: رفع الأكف إلى الله والبكاء بين يدي الله والتضرع إليه سبحانه وتعالى، ثم يفيضون من عرفة إلى مزدلفة، وماذا في مزدلفة؟ مكان قفر، ليس فيه شيء إلا أن فيه المشعر الحرام الذي أمرنا بالدعاء والتضرع إلى الله فيه ﴿فَادْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ اذكروه كما هداكم. ثم بعد ذلك نتجه إلى منى فنرمي جمرة العقبة، الناس يربطون ما بين الشيطان والجمرة، أنا لا أستطيع أن أحكم أنها رابطة متلازمة بين وجود الشيطان في ذلك المكان أو غيره. إنما هو إعلان من الإنسان المسلم: أي يا رب لن أهادن من يصدني عن سبيلك، ولن أخضع لمن يريد أن يحول بيني وبين تنفيذ شرعك، لبيك يا رب. ترمي ذلك المكان الذي يحمل

معنى رمزياً لمن يصدق عن سبيل الله. ترمي سبع حصيات للسبعة فيها معنى هنا، سبعة أشواط طواف وسبعة أشواط سعي وسبعة حصيات، لها معانٍ أنا لا أستطيع أن أعللها أو أفسرها، ولكنها تنسجم مع منظومة الكون، هي جزء من منظومة الكون، سبع سموات مع سبع طوفات مع سبع أشواط لها معنى ينسجم ويتناسق تماماً مع الدورة الكونية، إلا أن الكون قد انصاع لنظام الله عز وجل بالأمر التكويني، وأنت تنصاع لأمر الله عز وجل بالأمر التكليفي، وهنا يشرف الإنسان ويتميز على الأرض والسموات وعلى كل شيء ما سوى الإنسان؛ بما حباه الله عز وجل من منزلة ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ عهد إليه أن يكون مظهراً للعبودية الطوعية لله عز وجل، والانقياد لأمر الله سبحانه وتعالى بطوع وإرادته، لينال بذلك الأجر على ما نفذ أو ينال العقاب إذا ما تمرد وعصى.

معانٍ عظيمة في الحج، قلت إنها دورة تدريبية على العبودية، ليست هناك معانٍ أستطيع أن أستشعر عقلياً مدلولها، إلا معنى واحداً فقط، وهو لبيك يارب بما كلفتنني، فأنا طوع أمرك.

ثم إنها دورة تدريبية على الصبر، فالحج أيها المسلمون خروج من المؤلف بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى، ثيابك هذه تخلعها وتلبس ما يشبه الكفن؛ إزاراً ورداءً، ليس لك أن تلبس المخيط ولا المحيط المعمول على قدر البدن، وتكشف رأسك، وكثيراً ما يكون غطاء الرأس علامة مميزة لمكانة بين الناس، تسقط المكانة هنا، وأنت الأمير والفقير والغني وغيرهم سواء، لا تمييز بين الناس كبير القوم وصغيرهم جميعهم بلباس واحد. كلهم يقول: لبيك اللهم لبيك، لا تتطيب لا تقص شعراً لا تقص ظفراً لا تغطي رأسك لا تلبس حذاءً لا تلبس نعلًا مكشوفًا، إنه خروج عن المؤلف الذي كنت تتميز به وتتجمل به بين الناس، ألفت حياة معينة، هنا اخرج عن هذا المؤلف، لأنك الآن خاضع لأمر رباني. أنت فيه مع الله عز وجل في كل ذرة من حياتك، لسانك يقول لبيك اللهم لبيك، وجسدك يقول لبيك اللهم لبيك، وقلبك يقول لبيك اللهم لبيك، وأعضائك وجوارحك ملتزمة بليبيك اللهم لبيك.

دورة تدريبية على الصبر تصبر على هذا الأمر وليس سهلاً عليك أن تصبر، ولكن إذا كان هذا الصبر لله؛ فما ألد طعم الصبر عندما يكون لله، ما ألد وما أعظم وما أمتع أن أصبر فأجد في ذلك

الصبر رضا ربي سبحانه وتعالى، والأعظم من أن أنال رضى الله سبحانه وتعالى وأنا ضيف على أعتابه. دعائي فلبيته، ونادائي فأجبتة، وقلت يارب: أنا طوع أمرك.

دورة على الصبر .. صبر على أن لا تتكلم، فلا رفث ولا فسوق ولا جدال.

الحياة هناك صعبة ذلك أنك في تكاليف متتالية، تذهب على مكة فتطوف طواف القدوم ثم تسعى ثم تذهب إلى عرفة: تتجه إلى منى يوم التروية، ثم تذهب إلى عرفة، ثم تنزل إلى مزدلفة، ثم تنزل إلى منى لترمي جمرة العقبة، ثم تذهب إلى مكة. مشقة وتعب وازدحام شديد، أعراق مختلفة وأجناس متباينة وألوان لا عد لها ولغات متباينة، لا حصر لها أنت بين كل هؤلاء، ولكنك لست معهم وإن كنت بينهم، أنت مع الله عز وجل. أنت معهم في جسدك، ولكنك مع الله في روحك في عقلك في وجدانك في سلوكك في قصدك، وهذا يتطلب صبراً منك. صبراً على المشقة صبراً على الازدحام.

الحج دورة تدريبية على حسن الخلق ولذلك لا تجادل، وإذا كنت حاجاً فيجب أن تتصور أن الناس كلهم لا يبصرون إلا أنت، ومن ثم عليك أن تلمس العذر لكل واحد منهم آذاك، يجب أن تتصور وتتحيل أن الناس كلهم لا يسمعون إلا أنت، فاعذرهم إذا كانوا لم يسمعوك أو لم يروك أو لم يستجيبوا لك، افترض أنهم لا يسمعون وأنت وحدك الذي تسمع. فاصطبر بحسن التحمل الآخرين، اصبر وما أعظم أن تصبر حتى تتجسد فيك محاسن الأخلاق تجاه الخلق بالرفق بحسن التعامل، بالتحمل، بأن تعين الضعيف وتهدي الضال، وتساعد الفقير، وتشفق عليهم وقلبك مع الله بالطاعة، ونظرك إلى الخلق بالشفقة والرحمة بهم.

تطوف حول بيت الله وأنت في ضيافته، تقف على باب، تطوف على أعتابه، لست على باب ملك، ولا على باب عظيم، أنت على باب رب الملوك والعظماء، وقوفك على باب الخلق ذل ومهانة، لكن وقوفك على باب الله عزة وكرامة، ابك إذ يلذ هناك البكاء، ولكنك لا تبك توسلاً إلى مخلوق، ولا تبك تذلاً أمام عبد، إنه ليشق على الإنسان أن يتذلل لأخ له أو لأي إنسان آخر، أما على باب الله فما أمتع أن أتذلل وأمرغ جبهي على أعتاب الله عز وجل، لأن روحي بيده، وكياني

ملكه وأنفاسي بيده وأنا على أعتابه، أطوف حول بيته، يقول: "لا إله إلا الله وحده اللهم إيماناً بك وتصديقاً بكتابك ووفاءً بعهدك وإتباعاً لسنة نبيك محمد ﷺ اللهم إن البيت بيتك - لاحظ أنت تخاطب الله - والحرم حرمك، وهذا مقام العائذ بك من النار، فحرمي على النار، وآمني من عذابك يوم تبعث عبادك" ما أجلّ هذا الكلام وأنت حاضر القلب مع الله تنادي الله في طوافك تجهر بصوتك وهو يسمعك حتى ولو كنت تتكلم سراً.

أنشودة تبدأ بها من لحظة الإحرام وأنت تقول: لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك - لا لهوى، ولا لمكسب مادي ولا لرؤية عظيم من العظماء، وإنما أنا ضيف رب العزة جلّ شأنه - لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة والملك لا شريك لك.

أيها المسلمون:

معاني الحج كثيرة، فالسعي بين الصفا والمروة إحياء لذكرى تاريخية، هي قصة سيدتنا هاجر مع ابنها إسماعيل، يوم اقتضى أمر الله عز وجل أن يترك إبراهيم زوجته هاجر وابنه إسماعيل في ذلك الوادي غير ذي الزرع، وكلّهم إلى الله عز وجل ويمضي تاركاً إياهما، ولكن الله عز وجل لم يكن ليتركهم، السعي بين الصفا والمروة سعي للبحث عن مخرج من عند الله عز وجل.

أيها المسلمون:

إنني أناشد كل من يسعى بين الصفا والمروة وكل من يطوف ببيت الله أن يجأ إلى الله بالدعاء أن يجعل لهذه الأمة من ضيقها فرجاً ومخرجاً، ومن تأمر المتأمرين عليها فرجاً ومخرجاً . . .

كم من إنسان يطوف حول حجارة الكعبة وقلبه بعيد عنها، وكم من إنسان حالت دونه الظروف وقلبه يطوف حول الكعبة، أو الكعبة تطوف حول قلبه.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يكرمنا بالقبول وأن يكرمنا بالفرج، وأن يسعد قلوبنا بفرج قريب.

